Raymond Boudon
La Sociologie comme science
(Paris: La Découverte, 2010). 125 p. (Repères: sociologie. Thèses et débats)

علم الاجتماع كعلم

محمود الذوادي(*)
عالم الاجتماع ـ جامعة تونس.

ـ ١ ـ

يتكوّن هذا الكتاب الصغير من ١٢٥ ص، ومن مقدمة وخاتمة وخمسة أجزاء، يعرض فيها ريمون بودون لعلم الاجتماع كعلم كما هو وارد في عنوان الكتاب. تطرح وتناقش أقسام الكتاب الخمسة مواضيع مختلفة. فيتحدث المؤلف في الجزء الأول عن سنوات تعلمه ودراساته لعلم الاجتماع. ويركز في الجزء الثاني على بحوثه في قضية اللامساواة في فرص التعليم (L'inégalité des chance scolaires) خاصة بالمجتمع الفرنسي. أما في الجزء الثالث، فيطرح ويناقش مسألة الاعتقادات في المجتمعات البشرية. ويفرد الجزء الرابع للتطرق إلى الاعتقادات في مفهوم الشيء العادل. ويختم بودون كتابه في الجزء الخامس بالحديث عن الديمقراطية الفرنسية. وينهي صاحب الكتاب مواضيع كتابه بخلاصة بعنوان: علم الاجتماع كعلم.

ـ ٢ ـ

يبيّن المؤلّف في الصفحات الأولى أنه اختار أن يكتب عن علم الاجتماع بصفته علماً من خلال تجربته الخاصة في الميدان. ومن ثم، فالكتاب هو عبارة عن سيرة ذاتية فكرية كما يذكر بودون نفسه (ص ٥ ـ ٦). يعرّفنا بودون ما وراء اختياره لعلم الاجتماع كتخصص، فيذكر أن الأسباب متعددة تتمثل في عوامل فكرية وسياسية وظرفية؛ ففي مرحلة التعليم الثانوي كان لبودون حب للرياضيات والعلوم، لكنه كان ذا ميل كبير أي العلوم الإنسانية والفلسفية (ص ٧). يشرح بودون أن مطالعاته خاصة لكتب عالمي الاجتماع لزرفالد (Lazarsfeld) ومورتن (Merton) أقنعته أن علم الاجتماع مؤهل للتفكير النظري الذي يلزم الباحث تبنّي الملاحظة المنهجية، وقادر في نفس الوقت على طرح الأسئلة/القضايا الفلسفية. ومن ثم، جاء قرار بودون لصالح التخصيص في دراسة علم الاجتماع في الجامعة. فدرس في جامعة السوربون حيث كان يدرس جورج غورفتش (George Gurvich) أشهر شخصية في علم الاجتماع الفرنسي يومئذ.

(*) البريد الإلكتروني: m.thawad@yahoo.ca.

يعترف بودون (Boudon) أن حصوله على منحة فورد (Ford) مكّنته من قضاء سنة ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ في جامعة كولومبيا بمدينة نيويورك حيث تعرّف على عالمي الاجتماع لزرفالد ومورتن فاكتشف **فقر الجامعات الفرنسية** مقارنة بما شهده في جامعة كولومبيا (ص ٩). في هذا الوسط الجامعي، اهتدى المؤلّف إلى إطار فكري (un paradigme) وضع حدّاً لترددات توجهاته الفكرية السابقة، ويتمثل هذا الإطار الفكري في ما يسمّى **الفردية المنهجية** (l'individualisme méthodologique) الذي يقول بأنه يجب **فهم كل ظاهرة اجتماعية على أنها نتيجة لسلوكات أعمال شخصية**. لقد ابتكر هذه الرؤية عالم الاقتصاد شومبمتر (Schumpeter) (١٩٥٠ ـ ١٨٨٣) وتبنّاها بعده فون هياك (Von Hayek) (١٩٩٢ ـ ١٨٩٩) وبوبر (Popper) (١٩٠٢ ـ ١٩٩٤). ويعتبر بودون اليوم أبرز المدافعين في فرنسا عن منظور الفردية المنهجية.

يذكر المؤلف أن أطروحته لشهادة الدكتوراه تحلّل الوقائع الاجتماعية (Les Faits sociaux) عن طريق علوم الرياضيات بإشراف جان ستويتزل (Jean Stoetzel) الذي كان راضياً فقط على آخر فصل من أطروحة بودون (ص ١٩). يقرّ هذا الأخير أن استعماله للمنهجية الفردية كان غير ناضج. فيذكرنا بمقولة هذه الأخيرة: **يجب على عالم الاجتماع تحليل كل السلوكات الاجتماعية باعتبار أن أسبابها تكمن في الدوافع التي تحتضنها روح** (l'esprit) الفرد. (ص ٢١).

أما البنيوية (Le Structuralisme) فقد أصبحت ذات تأثير كبير في ١٩٦٠. لقد ساهم في تطويرها عالم الأنثرويولجيا الفرنسي الشهير كلود لفي ستراوس (Claude Lévi-Strauss) حتى وصل الأمر إلى النظر إلى **البنيات** (Les Structures) وكأنها قوى ميتافيزيقية. فلم يعد هناك وجود للفرد/الإنسان في هذا المنظور، بل البنيات هي وحدها صاحبة التأثير الحقيقي (ص٢٢ ـ ٢٣). فهي تمثل **اليد الخفية** (l'invisible) التي تسمح بتفسير الأمور الظاهرة .(Le Visible) يقرّ بودون بمحدودية معارف العلوم الاجتماعية، ومنه ينتقد البنيوية والماركسية التي تهمّش دور الفرد. ولا يعتبر محدودية العلوم الاجتماعية إعاقة لها لكسب رهان العلمية. فهو يتفق مع وايتهاد (Whitehead) وبوبر القائلين: **فالعلم لا يمنع الحلم بحقيقة لا يستطيع الوصول إليها** (ص ٢٣).

يشير بودون أنه كان بحوزته إطار فكري سوسيولوجي ذو توجه **معاكس للبنيويه** السائدة أنذاك. حدث ذلك في نهاية دراسته الجامعية. يتمثّل هذا في ما سمّاه فون ميز (Von Mises) (١٩٤٩) **التفرد المنهجي** (Le Singularisme méhodologique) الذي يرى أنه لا نستطيع إنتاج معرفة إلا من خلال البحث عن تفسير ظواهر محدّدة، بغضّ النظر عن مدى صغرها (ص٢٧).

أما بودون فيحدّد معالم إطاره الفكري في التالي: «فالإطار الفكري الذي تبنّيته كان يستند إلى مسلّمتين، وهما:

ـ الظواهر الاجتماعية هي نتيجة لسلوكات فردية يمكن فهمها.

ـ توجد أسباب السلوك في المعنى الذي

يعطيه الفرد لها: أي في العوامل الشخصية وغير الشخصية» (ص ٢٧ ـ ٢٨).

يعترف المؤلّف أن **ماكس فيبر** قد اهتدى إلى هذا الإطار الفكري عندما بعث برسالته إلى عالم الاقتصاد الشهير رولف ليفمان (Rolf Liefmann) قائلاً: «يجب على علم الاجتماع أن يتبنّى هو أيضاً منهجية فردية فقط: Soziologie auch muss strikt individualistish in der methode betrieben werden» ومع ذلك، **فلم يقدم فيبر ولا شوبيتر قبله تعريفاً للمنهجية الفردية** (l'individualisme méthodologique IM) يرى بودون أن ما تدعو إليه هذه الأخيرة هو أن يتبع عالم الاجتماع مثال المنهجية العلمية لدى علماء الأحياء والفيزياء والكيمياء (ص ٣١).

ـ ٣ ـ

وبناءاً على الاقتناع القوي لدى المؤلّف بمصداقية منظور المنهجية الفردية، فإنه يحاول تطبيقه في الدراسات الميدانية؛ فاختار القيام بالبحث في قطاع التعليم: أي علم اجتماع التعليم (ص ٣٤). تنطلق دراسة بودون من الملاحظة التالية: يزداد التعليم انتشاراً بين السكان، لكن الحراك الاجتماعي ومساواة فرص التعليم بين الناس لا يتغيران. توصل صاحب الكتاب في ١٩٧٣ إلى **إنشاء نظرية** في الموضوع في بحثه المعنون: عدم المساواة في فرص التعليم. يستند بودون إلى عاملين لتفسير الظاهرة:

١ ـ هناك عوامل متعدّدة (لغوية، مقدرة التعلم المعرفي (cognitif) لدى أسرة التلميذ.. إلخ) تؤدي إلى ظهور علاقة إحصائية بين الأصل الاجتماعي للمتعلم ومستوى نجاحه في المدرسة.

٢ ـ هناك عوامل أخرى (أثمان الفرصة (coûts d'opportunité)، آليات تأثير المجموعات المرجعية Les groupes de (référence) مستقلة عن الأولى تجعل، عند التساوي في النجاح المدرسي، التلميذ وعائلته يترددان كثيراً أو قليلاً في الطموح إلى كسب رهان مستوى مدرسي أعلى (ص ٣٨).

تفسّر مجموعة العوامل الأولى أنه منذ السنوات الدراسية الأولى **يختلف النجاح الدراسي تبعاً للأصل الاجتماعي**. أما مجموعة العوامل الثانية فهي تبيّن أن الأصل الاجتماعي يحافظ على تأثيره في قرارات التوجيه التي يتبنّاها المراهقون وأسرهم. وهكذا يتضح في الحالات العامة، أن **النوع الثاني يكون من العوامل الأكثر أهمية**، أي أنه يفسّر عدم المساواة في النجاح المدرسي بنسبة أكثر بكثير من النوع الأول من العوامل (ص ٣٩). وبعبارة أخرى، تلعب المجموعات المرجعية (Les Groupes de référence valeurs) دوراً أكثر حسماً من السمات الأخرى التي تصف الأصناف الاجتماعية المختلفة أو أنواع التعلم المعرفي الذي تمدّ به العائلة الطفل. ومن ثم، **فنظرية بودون** تتلخص في أن **المجموعات المرجعية تمثل السبب الرئيسي وراء عدم المساواة في النجاح المدرسي**.

ـ ٤ ـ

يقوم المؤلّف بجرد لرد أفعال علماء الاجتماع على كتابه الذي نشرت فيه

نظريته مثل Raymond Moulin و Stein Rokkan و La Zarsfeld الذين استقبلوا الكتاب بإيجابيّة، بينما اعتبر أصحاب المدرسة البنيوية أن مقولة كتاب بودون موجهة ضدّهم (ص ٤٠). ويرى بودون أن نجاح كتابه يعود في جزء منه إلى قدرته على **وضع حدّ للهوّة بين الجانب الكمّي ونظيره الكيفي**، كما برهن أنه يمكن فهم السلوكات الفردية وتفسير السلوكات الناتجة منها على المستوى الإحصائي. ورغم ذلك، فيعتقد أن الكثيرين ينظرون إليه كشاذ hérétique/ منحرف ممّا جعله يردد المثل: **من يصل مبكراً جداً إلى الصواب يتهم دائماً بالخطأ** Avoir raison trop tôt, c'est toujours avoir tort (ص ٤١).

يقترح صاحب الكتاب بعض الخطوات لتحسين مستوى المساواة المدرسية بين المتعلمين الفرنسيين. يرى أنه لا تناقص مع هدف المدرسة المتمثل في التعليم الناجح للمعرفة وضرورة تحقيق المساواة في كسب المعرفة (ص ٤٣). يعترف بودون **أن كتابه لم يلق ترحيباً واسعاً في بلده فرنسا** مثل زميله جان كازنوف (Jean Cazeneuve) الذي علّق على دراسة بودون بقوله: «إن الأخطر فيها أن بودون أثبت مقولتها علمياً» (ص ٤٥). وفي المقابل وقع استدعاء المؤلف إلى جامعات أمريكية شهيرة ليحاضر فيها مثل جامعتي هارفرد وشيكاغو (ص ٤٦).

ـ ٥ ـ

يتطرّق بودون في القسم الثاني من كتابه إلى موضوع الاعتقادات الجماعية(Les Croyances collectives) التي كانت تلقى اهتماماً كبيراً لديه. يعتقد المؤلّف أن ظاهرة الاعتقادات الجماعية تطرح على عالم الاجتماع **سؤالاً نظرياً صعباً**: ما هي أسبابها؟ ففي التسعينيات من القرن الماضي ترك علم الاجتماع جانباً الاهتمام بالمسائل النظرية الكبيرة التي طرحها علم الاجتماع الكلاسيكي، ليركز بدلاً من ذلك على القيام بالبحوث الميدانية الصغيرة المستعملة لمنهجية المقابلة والملاحظة بالمشاركة (ص ٥١). وهذا التوجه لايساعد التخصصات العلمية (Les Disciplines scientifiques) على التقدم. ففي نظر بودون، لا يمكن تحقيق ذلك إلا بالارتكاز على رجلين: **البحث الأساسي والبحث التطبيقي**.

يتعرّض المؤلّف إلى أفكار ريمون (R. Aron) وفيلفريدو بريتو (V. Pareto) و كارل مانهايم (K. Mannheim) حول موضوع هذا القسم من الكتاب فيذكر أنهم يتبنون موقفاً مزدوجاً إزاء أسباب اعتقاداتنا:

ـ الاعتقادات التي ننتمي إليها بسبب أسسها المتينة.

ـ الاعتقادات الضعيفة الأسس. تطرح هذه الأخيرة السؤال حول الأسباب التي تجعل الناس يؤمنون بها (ص ٥٣). وبعد تفسير موقف كلٍّ من هؤلاء المفكرين، يخلص صاحب الكتاب إلى القول: إنهم يرون أن التفكير العقلي هو سبب الإيمان بالاعتقادات ذات الأسس المتينة. أما الإيمان بالمعتقدات ذات الركائز الضعيفة فهي ترجع إلى عوامل غير عقلية (Des forces irrationnelles) (ص ٥٦).

يتعرّض المؤلف إلى عدة نظريات حول الاعتقادات الجماعية مثل النظريات

النسبية والطبيعية التي تشير إلى رؤية دارون لتفسير هذه الظاهرة.

أمّا علم النفس المعرفي (La Psychologie cognitive) فيؤكد الطابع غير العقلاني للفكر البشري العادي [ص ٥٩]. وبعد مناقشة هذا الموضوع، يخلص بودون إلى القول: يختلف الفكر العادي عن الفكر العلمي في الدرجة وليس في الطبيعة. فالأول أقل تنظيماً ومنهجيةً من الثاني، ولكنه يعتمد طرق مماثلة [ص ٥٢]. وبالنسبة إلى روّاد علم الاجتماع الغربي مثل دي توكفيل ودوركايم وفيبر فيرون أن الاعتقادات الجماعية تتأثر بعوامل المحيط. ينهي المؤلف هذا القسم من كتابه بالحديث عن الاعتقادات السحرية التي يتوصل إليها الإنسان البدائي من خلال رؤيته البيولوجية للأشياء المتأثرة بالعقائد الدينية السائدة في المجتمعات [ص ٦٦].

ـ ٦ ـ

يركز بودون في الجزء الرابع من الكتاب على شرح ومناقشة العوامل الصالحة لتفسير ظاهرة الاعتقادات الجماعية؛ فيلقي أضواء خاصة على رؤية ماكس فيبر من خلال ما يسمى نظرية العقلانية العادية (La Théorie de la rationalité ordinaire/TRO) التي تقول بأن كل سلوك و اعتقاد هما نتيجة لعوامل شخصية وغير شخصية تؤثر فيها عوامل المحيط، وينظر إليها الفرد على أنها أقوى من العوامل البديلة [ص ٩٠]. يرى بودون أن هذه النظرية قادرة على رتق الهوة بين التفكير العادي والتفكير العلمي.

ـ ٧ ـ

يخصّص صاحب الكتاب القسم الخامس والأخير من كتابه لمناقشة الديمقراطية الفرنسية بمنظور علم الاجتماع المقارن. يعترف بودون أن اهتمامه بدراسة الاعتقادات الجماعية قاده إلى التساؤل عن أسباب هيمنة الجماعات المؤثرة (Les Groupes d'influence) في تشكيل الحياة السياسية الفرنسية. يتطرق بودون إلى عدة مفاهيم في تحليله لظاهرة الديمقراطية بالمجتمع الفرنسي ويأتي في طليعتها مفهوم المشاهد المحايد (Le Spectateur impartial) المتمثل في تحاشي المواطن لتأثير عواطفه ومنافعه عند استشارته حول بعض المسائل [ص ٩٨].

يشير المؤلف إلى أن المساواة (l'égalitarisme) بين الفرنسيين هي أسطورة متجذرة في عقول النخب السياسية والفكرية الفرنسية أكثر من كونها واقعاً ملموساً. يضرب بودون أمثلة فرنسية تبيّن ثقل وزن الجماعات المؤثرة في السياسات الاجتماعية التي طالما تخالف الرأي العام في فرنسا. ومن ثم، خلص المؤلف إلى القول: إن ما يهدد الأنظمة الديمقراطية والنظام الديمقراطي الفرنسي على الخصوص هو طغيان الأقلية والجماعات المؤثرة أكثر من طغيان الأغلبية [ص ١٠٥].

يبيّن بودون أن الديمقراطية الفرنسية أكثر عرضة من الديمقراطيات المجاورة لما يسمى أثر أُلْسُن (l'effet Olson) الذي يعيق الديمقراطية [ص ١٠٧]. وفي المقابل، يمكن الحد من ذلك عندما تكون السلطة السياسية مشتركة بين الجانبين

التشريعي والتنفيذي في نظام الحكم مما يسمح بوجود أفضل للعملية الديمقراطية بسبب قدرة المشاهد المحايد (le Spectateur impartial) على لعب دور أكبر والحدّ من طغيان دور الأقليات الناشطة.

ـ ٨ ـ

يختم بودون كتابه بخلاصة في ثلاث صفحات تحمل نفس عنوان الكتاب: **علم الاجتماع كعلم**. فيبرز أهمية مفهوم الفردية المنهجية في تأهل علم الاجتماع لكسب رهان الروح العلمية. وفي نظرنا لا يمكن الفوز بهذه الأخيرة بدون أن ينظر علماء الاجتماع إلى الإنسان على أنه في المقام الأول كائن ثقافي بالطبع [**اللغة المنطوقة والمكتوبة والفكر والدين والمعرفة/العلم والقوانين والأساطير والقيم والمعايير (الأعراف) الثقافية**] قبل أن يكون اجتماعياً بالطبع. وهذا ما سمح لنا ببناء **نظرية الرموز الثقافية** التي تنشرها مجلة العلوم الاجتماعية بجامعة الكويت في عددها الأول لسنة ٢٠١١.

فإعطاء المركزية للرموز الثقافية في هوية الإنسان أمر مفقود أو ضعيف جداً عند مؤسسي علم الاجتماع الغربي، ومن جاء بعدهم (Semashko, 2006: 829-838). ومن المفارقات بهذا الصدد أن بودون يصاحبه الصمت في كامل الكتاب عن الطبيعة الثقافية للإنسان، بينما يُولي علماء الاجتماع أهمية مركزية لتأثير المجتمع والثقافة في سلوك الفرد.

فالمؤلف لا يذكر، مثلاً، دور المنظومة الثقافية لدى الإنسان في بروز الفردية المنهجية أو نظرية العقلانية العادية اللتين أعطاهما أهمية كبرى في تفسير السلوكات الفردية والظواهر الاجتماعية. وكأن الإنسان حيوان أو كائن عقلاني بالكامل، رغم بطلان ذلك حسب آخر التحقيقات في هذا الموضوع (Journet, 2011: 41). فمعروف أن عالم الاجتماع الأمريكي جورج هومنس (George Homans) تبنّى حرفياً التفكير الاقتصادي بالنسبة إلى سلوك الإنسان فينظر إليه على أنه نتيجة لكسب المنافع وتحاشي الخسائر، وهو ما يطلق عليه علماء الاقتصاد السلوك العقلاني لدى الإنسان. وبالرغم أن بودون يعارض رؤية هومنس المتشددة، فإنه يبقى صامتاً عن ذكر دور المنظومة الثقافية في مدّ الفرد بأسباب معقولة ومتنوعة للانخراط في سلوك ما (bonnes raisons d'agir).

وفي موقف كلٍّ من هومنس وبودون إشارة واضحة إلى استمرار تأثرهما بتهميش العوامل الثقافية في التراث الفكري السوسيولوجي للآباء المؤسسين لعلم الاجتماع الغربي، كما أشرنا. وفي نظرنا، تصعب مشروعية وصف علم الاجتماع بالروح العلمية، كما يشير عنوان كتاب بودون، بدون أن تكون المنظومة الثقافية مركزية في دراسة سلوكات الناس وحركية المجتمعات وتجسد الظواهر الاجتماعية □

المراجع

Journet, Nicolas (2011). «Sommes-nous rationnels?.» *Sciences Humaines*: no. 225, avril.

Semashko, Leo (2006). «The Meanings of Social Life: A Cultural Sociology.» *International Sociology Review of Books*: vol. 21, no. 6, November.